



obeikandi.com

يعتبر عصر تيمور وخلفائه من أزهى عصور التصوير الفارسي، فقد كان مجيء هذا الفاتح التتري واتخاذهُ سمرقند عاصمةً لملكه منذ سنة ٧٧٢هـ (١٣٧٠) فاتحةً لهدوء نسبي ساد بلاد إيران، التي عرفت في عهده وعهد ابنه وخليفته شاه رخ [٨٠٧-٨٥٠هـ (١٤٠٤-١٤٤٧)] سلاماً لم تكن عرفته منذ مدة طويلة؛ وقد كان تيمور على فظاظته وقساوته محباً للفن والأدب، مغرماً بقراءة أشعار حافظ ونظامي، وكان هو وخلفاؤه من أكبر المشجعين للفنانين والعلماء والأدباء.

وقد مهدت العصور السابقة لهذا العصر، فكانت فيها مراحل الاقتباس والاختيار والتأثر الكبير بالفنون الأجنبية، وقدر لعصر تيمور وخلفائه أن يشهد ازدهار طرار إيراني قوي إلى حد كبير، وغنى بما اكتسبه من صناعة الشرق الأقصى، وأصبح جزءاً أساسياً فيه.

وفي المصادر التاريخية أن تيمورلنك عمل على أن يجمع في عاصمته سمرقند أكبر عدد ممكن من الفنانين والفنانين والصناع، فنقل إليها مئات المصورين من بغداد وتبريز وغيرهما من البلاد التي استولى عليها. ومع ذلك فقد ظلت بغداد وتبريز مركزين لصناعة التصوير؛ وإن يكن التاريخ قد حفظ لنا اسم مصور بغدادى شهير هو عبد على عاش في بلاط سمرقند، فأكبر الظن أن هذه المدينة لم تبلغ في عهد تيمور ذلك المركز الكبير الذى بلغته هراة منذ أوائل القرن الخامس عشر. في عهد شاه رخ وخلفائه.

فالأواقع أنه يكاد لا يكون لدينا مخطوطات مصورة في سمرقند منذ عهد تيمورلنك، ولكن في المكتبة الأهلية بباريس مخطوط ينسب إلى هذه المدرسة، وهو رسالة في علم الفلك كتبت بسمرقند في النصف الأول من القرن التاسع

الهجرى (الخامس عشر) مكتبة أولوغ بك ابن شاه رخ، وحاكم بلاد ما وراء النهر من سنة ٨١٢هـ (١٤٠٩) إلى سنة ٨٤٩هـ (١٤٤٦)، وكان هذا الأمير قد أسس في سمرقند مرصداً شهيراً جمع فيه كبار المشتغلين بعلم الفلك^(١).

وفي متحف المتروبوليتان بنيويورك مخطوط فلكى آخر مزين بخمسين صورة للبروج والنجوم، وترجع ملابس الأشخاص وتفصيل الصناعة أن يكون هذا المخطوط قد كتب أيضاً بسمرقند في عهد أولوغ بك^(٢).

على أن هناك مخطوطين في المتحف البريطانى يرجع عهدهما إلى عصر تيمور نفسه، ويمثلان حلقة الاتصال بين المدرسة الفارسية الترية وبين مدارس التيموريين.

وأول هذين المخطوطين نسخة من قصائد خواجه كرماني يشرح فيها غرام الأمير الفارسى همای بهمايون ابنة إمبراطور الصين^(٣)، وقد كتبه الخطاط الفارسى الشهير مير على التبريزى في بغداد سنة ٧٩٩هـ (١٣٩٦)؛ وعلى إحدى صورته توقيع الفنان الفارسى جنيد السلطانى الذى كان فى خدمة السلطان أحمد من السلاطين الجلائريين ببغداد^(٤).

والمخطوط الثانى يرجع إلى العهد نفسه ويشمل عدة قصائد منها تاريخ منظوم كتبه أحمد التبريزى لفتوح جنكيزخان.

(١) راجع ... Migeon : Manuel ج ١ ص ١٥٦ و Blochet : Musulman Painting من اللوحة ٨٨ إلى ٩٣.

(٢) انظر ... Dimand : A Handbook ص ٢٧.

(٣) قارن ... Miniature Persane : Sakisian La ص ٣٢ و Migeon: Manuel ج ١ ص ١٥٢.

(٤) انظر اللوحات ١٠ و ١١ و ١٢.

وفى صور هذين المخطوطين كثير من الصفات الزخرفية التى أصبحت فيما بعد من مميزات مدرسة هراة فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر)، فالأشجار الطويلة والمناظر الطبيعية ذات الجبال والتلال المرسومة على شكل الإسفنج، والنباتات الصغيرة التى تزيد فى زخرفة الصورة وتمنحها طابعاً خاصاً، والألوان القوية التى لا يكسر من حداثتها أى تدرج، كل هذا يفرق بين صور هذين المخطوطين وبين الصور الأولية فى القرن السابع والثامن (القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر).

على أن الأفضل أن لا ننسب صور هذين المخطوطين إلى أى مدرسة تيمورية، إذ الواقع أنها تمثل آخر تطور للمدرسة التترية. فعصر المغول يمتد إلى أوائل القرن التاسع (الخامس عشر)، وأسرة الجلائيريين المغولية التى حكمت فى العراق واتخذت بغداد عاصمة لها جعلت هذه المدينة تترية طول القرن الثامن (الرابع عشر) وجزءاً من القرن التاسع (الخامس عشر) بالرغم من استيلاء تيمور عليها سنة ٧٩٥ (١٣٩٣).

وفى المصادر التاريخية أن السلطان أريس من أواخر ملوك أسرة الجلائيريين، كان من الملوك الذين عاجلوا التصوير وأصابوا فيه نجاحاً كبيراً.

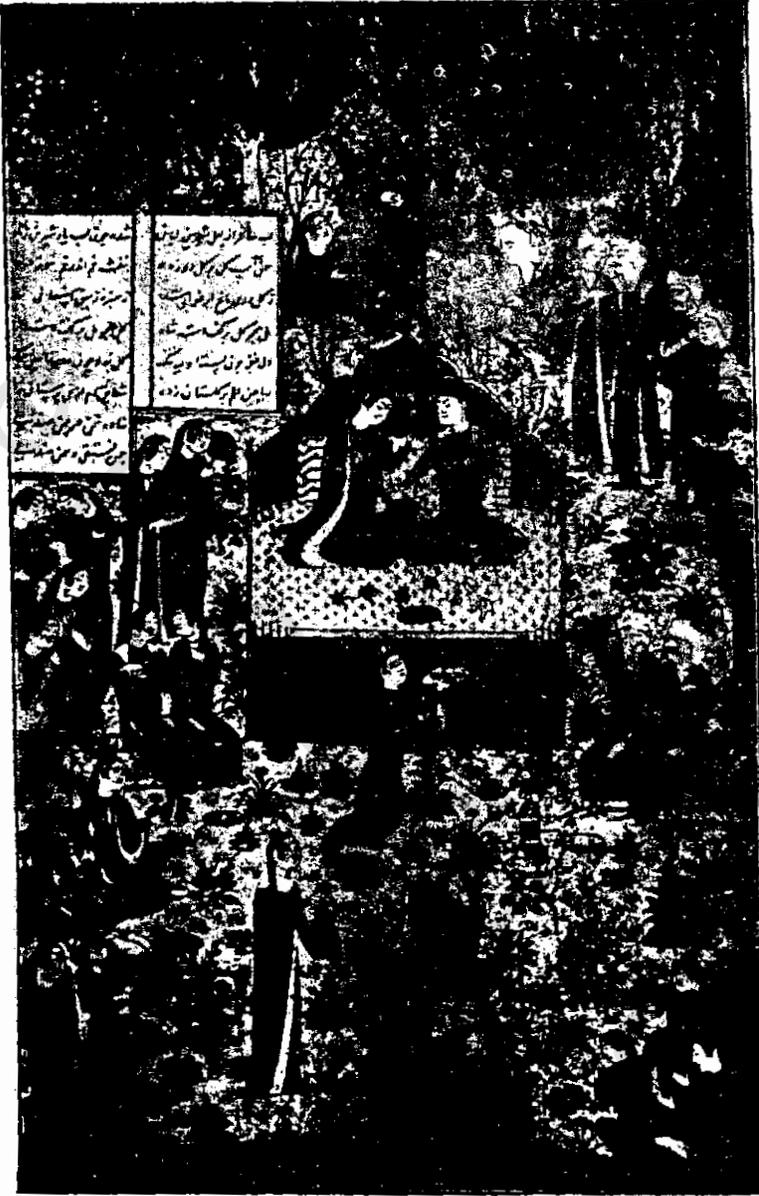
فالشبه إذن بين هذه الصورة وبين الصور التيمورية يرجع إلى أن الأولى تمثل، كما ذكرنا، حلقة الاتصال بين المدرسة الفارسية التترية وبين مدارس التيموريين، والواقع أن تيمور نفسه، بالرغم من غرامه بالفنون الجميلة، لم يكن السبب المباشر فى نشأة الطراز التصويرى الذى ننسبه إلى العصر المسمى باسمه، والذى هو نمو طبيعى لفن التصوير فى القرن الثامن (الرابع عشر). لم تكن لذلك الفاتح يد كبيرة فيه؛ ولكن الذى يجعل هذه التسمية عادلة هو الرعاية السامية التى شمل بها خلفاء تيمور المصورين وفن التصوير.



(شكل ١٤)

حبيبان

من مخطوط من منظمات خواجه الكرماني بالمتحف البريطاني تاريخه سنة ٧٩٩هـ - عن مارتن



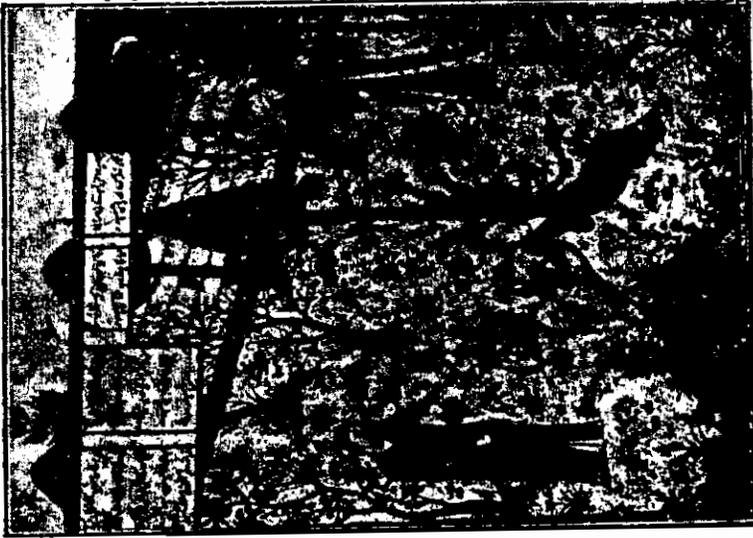
(شكل ١٥)

منظر في حديقة

من مخطوط من منظمات خواجه الكرماني بالمتحف البريطاني تاريخه سنة ٧٩٩هـ - عن مارتين



(شكل ١٦)
فارسان وحصانان يتقاتلان
للمصور جيند النقاش في بغداد سنة ١٧٩٩هـ



(شكل ١٧)
منظر في حديقة

من مخطوط من منظمات خواجو الكرماني بالمتحف البريطاني

توفى دار الكتب المصرية نسخة من الشاهنامه للفردوسى كتبها لطف الله بن يحيى بن محمد فى شيراز سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٣)؛ وفيها صحيفة مزخرفة وسبع وستون صورة مصغرة تشبه فى الصناعة وفى طراز المناظر الطبيعية والملابس والسحنة مخطوطا من كلية ودمنة محفوظا الآن فى المكتبة الأهلية بباريس (١).

وفى مجموعة المستر شستر بيتى Chester Beatty شاهنامه أخرى كتبت فى شيراز سنة ٨٠١هـ (١٣٩٧)، وكانت فى مجلد واحد مع جزء من مخطوط محفوظ الآن بالمتحف البريطانى - ويشمل عدة قصائد على غمط الشاهنامه - وصور هذين المخطوطين أدق صناعة من الصور الموجودة فى شاهنامه دار الكتب المصرية؛ فالوانها أكثر تناسبا، ورسومها أكثر تنوعا وإبداعا.

وقصارى القول أن مجموعة المخطوطات التى كتبت فى آخر القرن الثامن الهجرى (السنين العشر الأخيرة من القرن الرابع عشر) لها ميزات لا يستهان بها؛ ففيها تظهر الألوان الساطعة، ومناظر الحدائق والزهور والربيع، التى أصبحت بعد ذلك من خصائص الفن الفارسى. وقد وصل الفنانون فيها إلى إيجاد نسبة جميلة للأشخاص، وتوافق حسن بين متن المخطوط وبين الصور المصغرة. وفى بعض هذه الصور رسوم لمنسوجات وسجاد لم يصل إلينا منه شىء. ولا ريب أن أكبر الفضل فى العناية بالتصوير الفارسى فى هذه المرحلة يرجع إلى السلاطين الجلائريين.

(١) راجع Binyon, Wilkinson & Gray: Persian Miniature Painting ص ٦٢.

مدرسة هراة

على أن التصوير الفارسي يصل إلى العصر الذهبي في عهد خلفاء تيمور: ابنه شاه رخ، وأحفاده: بيسنقر، وإبراهيم سلطان، وإسكندر بن عمر شيخ.

ولا غرو فقد أصبح في عصرهم وحدة قوية تمثل الروح الإيرانية، ويصعب كشف العوامل الأجنبية فيها.

وقد أدى النظام السياسي لإمبراطورية تيمورلنك إلى نشأة مراكز فنية عديدة؛ فبينما كان في عاصمة الدولة إمبراطور يشرف على إدارتها، كان في الأقاليم المختلفة أمراء يحكمونها ويجعلونها أشبه شيء بممالك مستقلة متحدة، وكان لكل أمير منهم بلاطه، وفي بعض الحالات نظامه الوراثي للحكم على النحو المتبع في عاصمة الإمبراطورية نفسها. فترى مثلاً أن شاه رخ كان حاكماً على خراسان في حياة والده تيمورلنك، ولما توفى هذا خلفه ابنه وظل مقيماً في خراسان، واتخذ هراة عاصمة لملكه، وعين أولوغ بك حاكماً على بلاد ما وراء النهر ومقره سمرقند، وإبراهيم سلطان حاكماً على شيراز وإقليم فارس.

وكان شاه رخ ملكاً رشيداً، عرفت إيران في عصره السكينة والهدوء، وأصبحت هراة مركزاً كبيراً لصناعة التصوير، وأسس فيها الإمبراطور مكتبة واسعة، ولما نصب ابنه بيسنقر حاكماً عاماً على إقليم هراة، أسس الابن مكتبة أخرى ومجمعاً للفنون، جمع فيه المصورين والمذهبيين والخطاطين والمجلدين؛ فلعب هذا المجمع دوراً كبيراً في صناعتى التصوير والتذهيب اللتين انتقلتا من شيراز وتبريز وسمرقند إلى هراة.

ولم تبلغ العلاقات بين إيران وبلاد الشرق الأقصى من الود في وقت من الأوقات ما بلغته في عصر شاه رخ؛ فتبدلت البعثات، ولعل ذلك يرجع إلى تغيير الأسرتين الحاكمتين، فكما انتهى حكم المغول في فارس في أواخر القرن الثامن الهجري (الرابع عشر) انتهى أيضا في الصين حكم أسرة يوان Yuan المغولية (١٢٨٠-١٣٦٧) وخلفتها أسرة منج Ming (١٣٦٨-١٦٤٤).

ومما يلفت النظر أن بيسنقر ضم إلى إحدى هذه البعثات التي سافرت إلى الصين حول سنة ٨٢٣هـ (١٤٢٠) مصورا اسمه غياث الدين، كلفه بأن يصف كل ما يراه في طريقه، وقد فعل غياث الدين ذلك، ونقل إلينا وصفه كمال الدين عبد الرازق في كتابه «مطلع السعدين» الذي ترجمه إلى الفرنسية المستشرق كترمير Quatremere. وليس بعيدا أن يكون غياث الدين قد اصطحب معه في عودته بعض الفنانين الصينيين أو شيئا من صورهم^(١).

ومهما يكن من شيء فقد كانت الصور والرسوم معروفة في إيران حق المعرفة، يقدرها الأمراء ورجال الفن ويلحون في طلبها، وقد كان لذلك تأثير كبير يصعب علينا إيضاحه وكشفه؛ ولكننا نلمسه ونجزم بوجوده حين نرى الدقة التي وصلت إليها صناعة التصوير في مدرسة هراة. على أنه قد وصل إلينا بعض صور نرى فيها العوامل الصينية والإيرانية جنبًا لجنب، لم تحتلط ولم تكون وحدة قوية كما كانت في المدارس التيمورية، وأوضح هذه الصور واحدة رسم فيها فرع شجرة وعليه عصفور يكاد المرء يظنها من صناعة عصر منج Ming في الصين، ثم رسم تحتها خسرو وشيرين الحببيين الإيرانيين بملابس فارسية ووجهين صينيين، حتى لقد يعجز مؤرخو الفن عن الجزم بأن

(١) Binyon, Wilkinson & Gray: Persian Miniature Painting ص ٥٦ - ٥٧ .

صانع هذه الصور فارسي قلد الصناعة الصينية، أو صينياً قلد الصناعة الفارسية^(١).

ولكن أظهر ما يكون التأثير الفارسي في فن العصر التيموري هو في التجليد الذي تزيينه حيوانات الفن الصيني^(٢).

ومن مميزات الصور المصغرة في مدرسة هراة رسم الرؤوس الأدمية الحيوانية في زخرفة الفروع النباتية على النحو الذي نعرفه في الصور المصغرة الأرمنية، التي يرجع تاريخها إلى أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن (أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر).

ومن أهم الصور المنسوبة إلى مدرسة هراة واحدة في متحف الفنون الزخرفية في باريس، تمثل وصول الأمير هماي إلى بلاط إمبراطور الصين؛ ويرجع تاريخها إلى نحو سنة ٨٣٤هـ (١٤٣٠)، وفيها مزيج متناسق من رشاقة الصناعة الفارسية ومن جمال الفن الصيني في عصر منج^(٣).

على أن أثر اختلاط الأساليب الصينية في عصر منج Ming بالتقاليد الفنية الفارسية لا يصعب تمييزها في صور مخطوط معراجنامه المحفوظ الآن بال مكتبة الأهلية في باريس، والذي كتب لشاه رخ في هراة سنة ٨٤٠هـ (١٤٣٦). وأكثر هذه الصور مربع الشكل ومستقبل عن متن المخطوط، ويرى فيها النبي ﷺ ممتطياً صهوة البراق، يتقدمه سيدنا جبريل، أو تحيط به الملائكة، يسير في السموات، أو يقابل غيره من الرسل. ويلاحظ في رسوم

(١) انظر اللوحة ١٦ شكل ٢١.

(٢) انظر اللوحة ١٨ شكل ٢٤ و ٢٥.

(٣) انظر اللوحة ١٤ شكل ١٩.

الملائكة أن وجوههم مستديرة، وعيونهم صغيرة منحرفة تكشف عن تأثير السحنة الصينية في المصور، كما يظهر تأثره بالفن الصيني في الشكل التقليدي الذي يرسم عليه السحب، بينما نرى في وجوه النبي وأصحابه انسجاماً ورقة يمان عن صناعة إيرانية عربية. وهذه الصور في مجموعها جميلة زادها اللونان الأزرق والذهبي روعة وبهاء، ولكن تكرار الموضوعات جعلها لا تسلم من الملل^(١).

وشبيه بهذه الصور في الصناعة اثنا عشرة صورة مصغرة في متحف المتروبوليتان بنيويورك، وهي من شاهنامه يحتمل إرجاعها إلى النصف الأول من القرن التاسع (الخامس عشر). ومن أبداع هذه الصور واحدة تمثل رستم يمسك فرسه رخس، وإلى جانبها شجرتان مرسومتان على الطريقة الصينية، وتطير فوقهما أوزتان. وتمثل صورة أخرى كيكاس يحاول الطيران في السماء بوساطة نسرين يربطهما في عرشه^(٢).

وفي متحف المتروبوليتان مخطوط آخر من منظومات نظامي (الخمس) كتب في سنة ٨٥٣هـ (١٤٤٩)، وفيه ثلاثون صورة تمتاز بألوانها الزاهية؛ ولعل أكثر ما يلفت النظر فيها صورة فرهاد يحمل عشيقته شيرين وحصانها الذي تركبه^(٣).

هذا ويجب ألا يدور يخلدنا أن هنالك فرقاً يذكر بين الصور المصنوعة في هراة والصور التي صنعت في غيرها من المدن الإيرانية كشيراز مثلاً، والتي

(١) راجع Migeon: Manuel ج ١ ص ١٥٦ و E. Blochet; Les Enluminures des Manuscrits

Orientalx de la Bibliothèque Nationale ص ٨٣ - ٨٥.

(٢) راجع Dimand : A Handbook ص ٢٨.

(٣) راجع Dimand : A Handbook ص ٢٩.

ترجع أيضاً إلى عصر تيمور وخلفائه؛ فإن سياسة الحكم في عهدهم كانت ذكرنا أكبر مشجع على نشأة المراكز الفنية في أقاليم الإمبراطورية المختلفة، التي كان يتولاها أفراد من الأسرة المالكية؛ وكان ذلك أيضاً داعياً إلى تبادل كبار الفنانين، ولعل أشهرهم كان أكثرهم تنقلاً، بينما كان نصيب الفنانين العاديين البقاء في مواطنهم حيث تسود أعمالهم مسحة ريفية، نراها مثلاً في مخطوط للمنظومات «الخمسة» لنظامي، محفوظ الآن في جامعة إسبانيا، ويرجع تاريخه إلى سنة ٨٤٣هـ (١٤٣٩) (١).

وفي القسم الإسلامي من متاحف برلين صور من مجموعة أشعار فارسية كتبها سنة ٨٢٣هـ (١٤٢٥) في شيراز محمود الكاتب الحسيني لمكتبة الأمير بيسنقر؛ وأجمل هذه الصور اثنتان: واحدة تمثل خسرو يعثر على شيرين، والأخرى تمثل الحرب بين جنود كسرى برويز وبهرام جوبين (٢).

وقد كانت الصور المنسوبة إلى عصر تيمور لا يعرف منها إلا عدد قليل، حتى كان معرض الفن الفارسي في لندن سنة ١٩٣١ فظهر عند الهواة ومؤرخي الفن عدد كبير منها، وكذلك لدى حكومة جلالة الشاه التي أرسلت إلى هذا المعرض أنفس ما عندها. ولا يتسع المجال هنا لدراسة هذه الصور، فنكتفي بأن نحيل القارئ إلى المؤلفات والمقالات التي كتبت عن المعرض المذكور، وخاصة إلى كتاب الصور المصغرة الفارسية الذي كتبه لورنس بنيون وولكنسون وجراي.

(١) راجع Binyom, Wilkinson & Gray : Persian Miniature Painting ص ٧٣ .

(٢) انظر اللوحة رقم ١٣ شكل ١٨ وقارن Kühnel: Islamische Kunst في الجزء السادس من Springer: Handbuch der Kunstgeschichte ، اللوحة السادسة وراجع أيضاً مقال الدكتور كونل في Jahrbuch der Preussischen Kunstsammlungen الجزء ٥٢ ص ١٣٣ وما بعدها.

وقصارى القول أن فن التصوير فى عصر تيمور وخلفائه نما وترعرع وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الكمال الذى وصل إليه فى عصر بهزاد وتلامذته .

على أنه بعد وفاة شاه رخ سنة ٨٥١هـ (١٤٤٧) دب الانحلال إلى الإمبراطورية التى جاهد طويلا فى سبيل توحيدها وإعلاء شأنها، وأخذ خلفاؤه فى النزاع؛ فما لبث غرب بلاد إيران أن سقط فى يد خصومهم من قبائل التركمان التى تعرف باسم آق قويونلو أو ذوى الخروف الأبيض وقرايونلو أو ذوى الخروف الأسود نسبة إلى شعارهم الحربى . ومات السلطان أبو سعيد سنة ٨٧٣هـ (١٤٦٨) وهو يحاول استرداد هذه الأقاليم . وظهرت إمبراطورية الأوزبك فى بلاد ما وراء النهر، واستطاعت فى آخر القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر) أن تقضى على نفوذ التيموريين فى تلك البلاد وفى شرقى إيران، وبقيت هراة عاصمة خلفاء تيمور ولم تزدها هذه المحن إلا تقدما وازدهارا . فكان حكم السلطان حسين بيقرا ٨٧٣-٩١٢هـ (١٤٦٨ - ١٥٠٦) من أزهى عصور التيموريين، وتسابق إلى هراة رجال الأدب والفن والتاريخ، واستطاع السلطان بعرش أجداده؛ وكان ساعده الأيمن وزيره ورفيق صباه مير على شير الذى كان شاعرا مثله، وراعيا كبيرا للأدباء والعلماء ورجال الفن .

وعلى كل حال فقد ظهر فى خدمة حسين بيقرا ووزيره ميرعلى شير أكبر مصورى الفرس، وأشهر رجال الفن الإسلامى : بهزاد .



(شكل ١٨)

خسرو يقتل بهرام - المدرسة الفارسية الترية سنة ٨٢٣هـ

من مخطوط مؤرخ لمكتبة الأمير بيسنقر - متاحف برلين

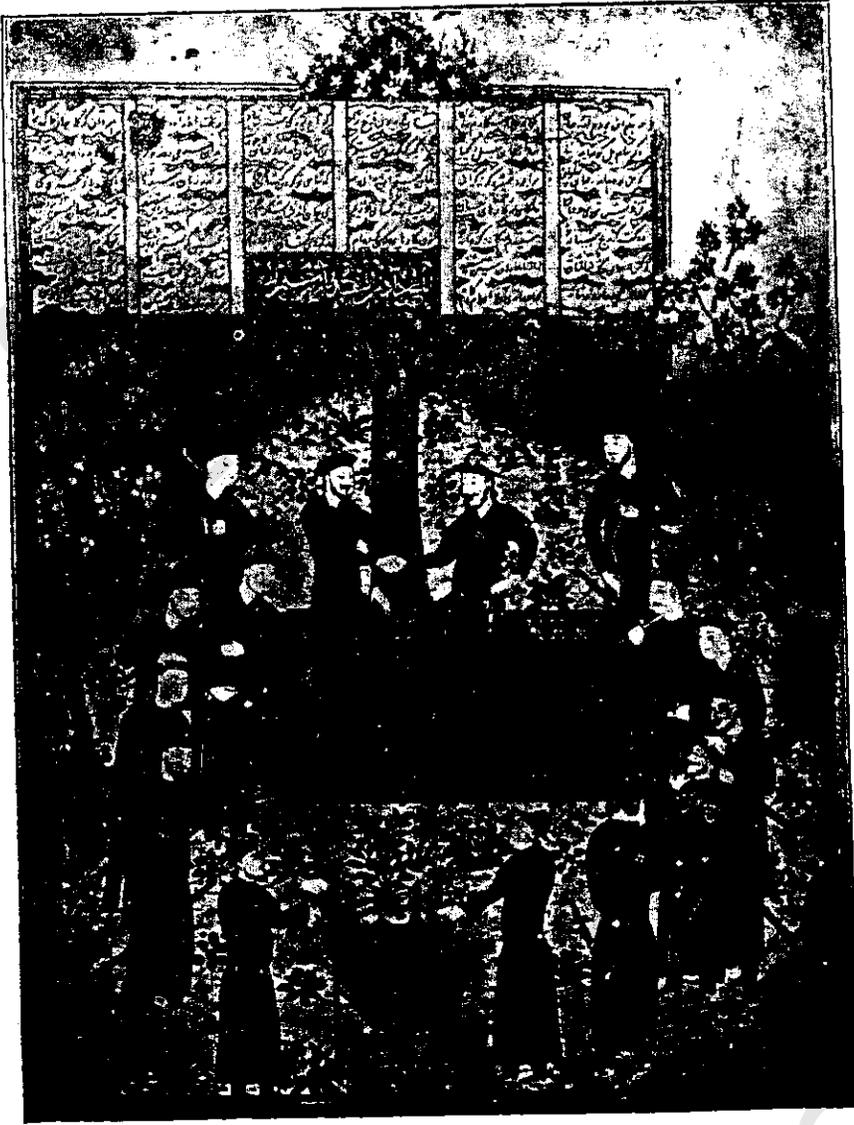


(شكل ١٩)

لقاء هماي وهمايون في حديقة القصر

المدرسة التيمورية - الربع الأول من القرن التاسع الهجري

بمتحف الفنون الزخرفية في باريس



(شكل ٢٠)

رسم واسفنديار قبل أن يتبارزا

المدرسة التيمورية سنة ٨٣٣هـ

من شاهنامه بمتحف كلستان بطهران

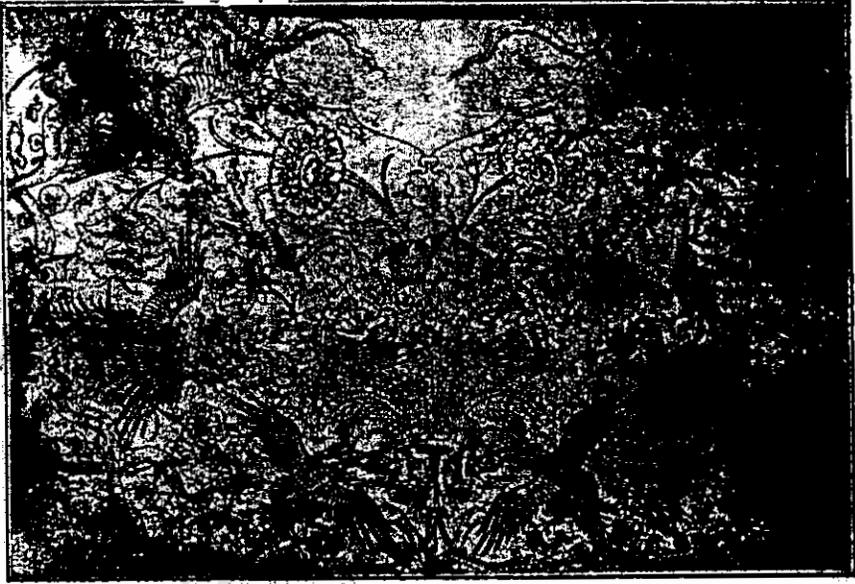


(شكل ٢١)

خسرو وشيرين

المدرسة التيمورية في أوائل القرن التاسع الهجرى

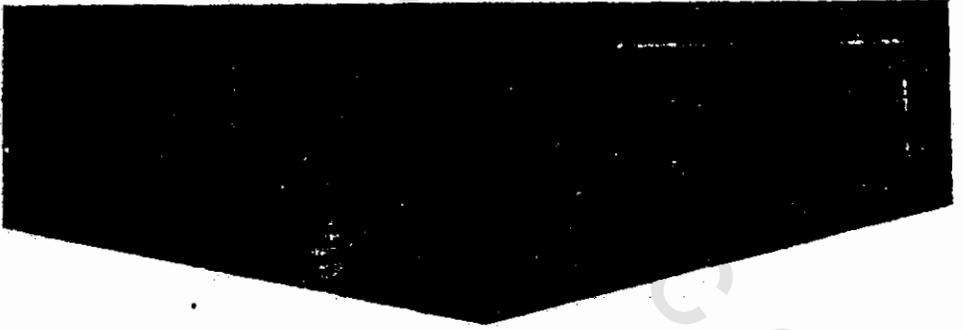
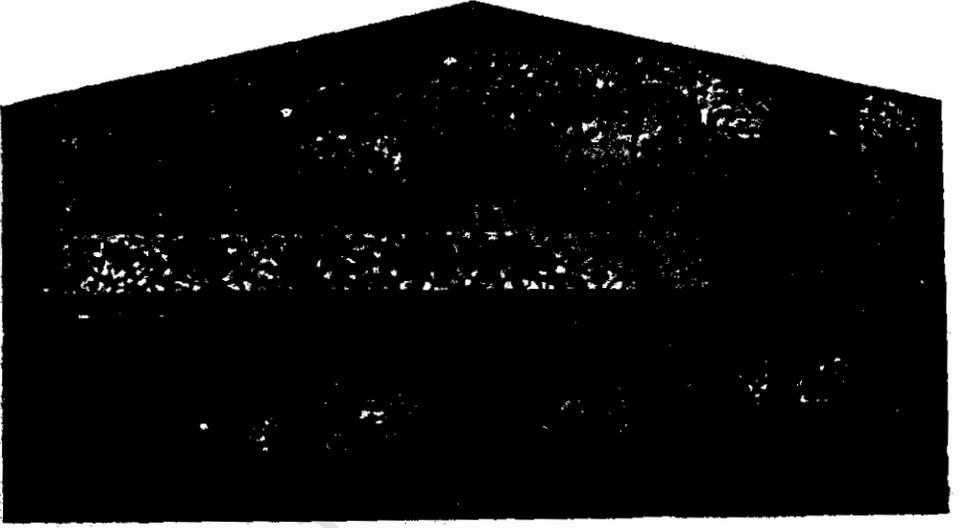
مجموعة فينر



(شكلا ٢٢ و ٢٣)

مدرسة هراة فى النصف الاول من القرن التاسع الهجرى - باستانبول

عن ساكسيان



(شكل ٢٤)

لسان بجلدة مخطوط باسم شاه رخ

مئسسة هراة سنة ٨٤٢هـ - مكتبة السراى القديمة باستانبول

عن ساكسيان